كنايات واضحة غامضة

لمرسناذ على السباعى

الأستاذ بكلية دار العلوم

للعرب فى جاهليتهم كنايات أغرم بها الأدباء فاتخذوها أساليب موروثة يزينون بها أدبهم ويزخرفون منها حديثهم ويستعملونها فيما قصد إليه السلف من التلطف فى الحديث والتأدب فى المشافهة والمواجهة وهى واضحة غامضة أما وضوحها فيظهر فى معرفة الشداة من المتأدبين المراد منها فى غير تردد ولا تمكث وأما غموضها فناشىء من التوقف فى معرفة أصلها إذ لا يعلم أصولها ويقف على دقائقها إلا الراسخون فى اللغة المتمكنون من آدابها ونكتب لأولئك الشداة الذين مرت بهم هذه الكنايات فعلقوها وزوقوا بهم أدبهم غير معنيين بالبحث عن أصلها والكشف عن مكنونها بيانا بالأصل فى بعض هذه الكنايات :

١ — لله دره : كناية عن التعجب من مزية فاق بها المتعجب منه غيره .

وتوضيحها الدر اللبن وهو أفضل المشروبات عند العرب ومن أكمل الأطعمة وأحسنها عند علماء التغذية وقد امتن الله به على عباده وجعل استخلاصه من بطون الأنعام عظة وعبرة ووصفه بأنه سائغ للشاربين فلا يشرق شاربه أو يغص به فقال (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين)[1] .

وقال ابن الأعرابى : الدر العمل من خير أوشر وهذا تفسير بالاستجازة وأصل هذ المثل أن رجلا رأى آخر يحلب إبلا فتعجب

---

(١) ذكر الضمير فى بطونه مراعاة للجنس أو لأن جمع التكسير فيما لا يعقل يعامل معاملة لفظ الجمع أو لأن المراد : الذكور أو لأن المراد البعض لأن من الانعام مالا لبن له كالذكور .

من كثرة لبنها فقال لله درك فالجملة خبريه يراد بها التعجب ومثلها ، لله أبوك ،ولله أنت ومن هذا النمط قول سيدنا على كرم الله وجهه يمدح سيدنا عمر رضى الله عنه (لله بلاد فلان : قوم الأود ، وداوى العمد ، خلف الفتنة وأقام السنة [١] فكان القائل حين يعجبه إنسان فى العلم أو الفروسية مثلا يقول لست يافلان فى هذا الذى يتعجب منه منسوبا إلى معلمك أو أبيك وإنما نسبت إلى الله من بين العلماء والفوارس تمجيدا لما نلت وتعظيما لقدرك وشرفك وكأن البلاد التى اشتهر أمرها بين الناس منسوبة لمن هندسها وخططها وأقامها إلا بلاد عمر فإن الذى سواها ورفع سمكها هو الله جل صنعه وعزشأنه ودر فى مثل هذا التركيب تضاف إلى ضمير المتكلم كقول ابن أحمر :

بان الشباب وأفنى ريعه العمر لله درى فأى العيش أنتظر

أو إلى ضمير المخاطب كقول الجموح الظفرى :

قالت أمامة لما جئت زائرها هلا رميت ببعض الأسهم السود

لله درك أنى قد رميتهم لولا حددت ولا عذرى لمحدود [٢]

أو إلى ضمير الغائب كقول النابغة أو لبيد :

كم شامت بى إن هلكـ ـت وقائل لله دره

أو إلى الظاهر كقول سيدنا حسان رضى الله عنه :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

وقد يأتى التركيب بغير لفظ الجلالة فيقال فى الدعاء له : در دره وفى الدعاء عليه : لادر دره

٢ - رمى الكلام على عواهنه : كناية عن التخليط بين الحسن والقبيح والصواب والخطأ :

وتوضيحها : العاهن أو العاهنة وجمعه عواهن السعفة التى تلى القلب فاذا

(١) الاود : العوج ، العمد : المرض ، خلف الفتنة : لا أدركها ولا أدركته

(٢) الاسهم السود كناية عن الاسطر المكتوبة أى هلا كتبت الى كتابا ، عذرى : معذرة حددتم : منعت

يبست تعلقت ولم ينتفع بها لأنها لاتحمل عذقا أو كباسة (١) ولا تمد القلب حينئذ بقوة تساعده على النمو والأثمار ولذلك قال عمر رضى الله عنه (ايتنى بجريدة واتق العواهن) أشفاقا على قلب النخلة أن يضره قطع ماقرب منه وعلى فى المثل بمعنى مع فالمراد ألقى الكلام حال كونه مع مالا ينتفع به ولا يفيد شيئاً .

وقد فسر الخليل ألقى الكلام على عواهنه بقوله : لم يتدبره ، أو قال غير مبال أصاب أم أخطأ ، أو قاله بقبيحه وحسنه والمعنى فى كل هذا التفسير قريب من قريب .

وفسره على بن سيده فقال : حقيقته أنه قال ما ألم به وحضره مأخوذ من العاهن بمعنى الحاضر يقال أخذ من عاهن ماله وآهنه أى من حاضره وتالده والمراد من لفظ حقيقة معناه لا المقابلة للمجاز .

وفسر ابن الأثير العواهن فقال أن تأخذ غير الطريق أو الكلام وقيل هو من قولك عهن له كذا أى عجل وبمعنى المثل حينئذ أرسل الكلام على ماحضر منه وعجل من خطأ وصواب .

وفى الأثر : إن السلف كانوا يرسلون الكلمة على عواهنها أى لايزمونها ولايخطمونها وتفسير خطم الكلمة واضح فى قول شداد بن أوس (ماتكلمت بكلمة إلا وأنا أخطمها أى أربطها وأشدها) يريد الاحتراز فيما يقوله والاحتياط فيما يتكلفه فالزم والخطم المأخوذان من يزم ويخطم فى الأثر المراد بهما منع الكلمة من الشرود والخروج على المألوف كما يمنع الزمام والخطام الدابة من الشراد والجماح عن الجادة .

وبما سبق من التفسيرات المتفقة معنى ومغزى تتضح الكناية التى نستعملها كثيرا فى مجالس القضاء أو الجدل السياسى أو الاجتماعى بل نكررها فى الحديث المعتاد ونقول لمن يخلط فى كلامه أو لمن يلقيه من غير تدبر أو تفكير

(١) السعفة من النخل بمنزلة الغصن من الشجرة ولا يقال لها جريدة إلا إذا نزع خوصها القلب شحمة النخلة وهو الجمار وسمى قلبا لبياضه ، الكباسة بمنزلة العنقود من الكرم

أو لمن لاحجة له تنهض بصدق حديثه وصحة قوله « يلقى الكلام على عواهنه » .

أما من يتدبر ويفكر ويسمع قوله صادقا فى حواشيه صوابا فى أغراضه ومراميه فيقال له « فلان ممن لا يلقى الكلام على عواهنه » أى أنه صادق ثبت وحجة ثقة لاتشوب كلامه شائبة من الخلط والخطأ .

٣ ـ هو أعلى كعباً : كناية عن السيادة والشرف والفوق فى المزايا .

توضيحها : الكعب العظم الناتىء فوق القدم وأسفله العقب وقد يسمى الناس العقب كعبا استجازة لعلاقة المجاورة ولكل قدم كعبان عن يمنتها ويسرتها ، والكعب من القصب أو الرماح عقدة مابين الأنبوبتين وقيل هو الأنبوب بين كل عقدتين والمعنى الأول أظهر وأوجه لاتفاقه مع كعب القدم فى النتوء والنشز ، والكعب فص النرد الذى يلعب به وجمعه كعوب وكعاب وأكعب ، والكعب الجد والشرف فيقال فى الدعاء أعلى الله كعبك أى أعلى الله شرفك وليس الكعب فى الكناية مرادا به كعب القدم أوالنرد لأن علو الكعب الخلقى عيب ينبز به صاحبه ويعير ولا معنى لعلو الكعب فى النرد فالمراد كعب القناة والرمح وكما نصطفى الآن أفره حصان ، أو أحدث سيارة ، أو أقطع سيف ، وابعد بندقة مرمى للقائد كان العرب يختارون للدلالة على شرف شيوخهم أو سادتهم الرماح المتباعدة الكعوب اللدنة تعسل متونها وتطرد حتى ليقال لأحدها رمح بكعب واحد إذا كان مستوى الكعوب فليس كعب أغلظ من آخر وفى مثل هذا يقول أوس بن حجر أحد وصاف الأسلحة العربية .

تقاك بكعب واحد وتلذه يداك إذا ماهز بالكف يعسل

ويقول ساعدة بن جؤية الهذلى فى لدونة الرمح واهتزازه واضطرابه ولا يكون كذلك إلا إذا تباعدت كعوبه

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

وقد قال العرب فى معنى الكناية السابقة أمثالا أخرى منها « هو أعلى الناس ذا فوق » الفوق موضع الوتر من السهم ويكنون بعلوه عن السيادة والشرف أيضا وقد وصف سيدنا على كرم الله وجهه سيدنا أبا بكر رضى الله عنه فقال كنت أخفضهم صوتا وأعلاهم فوقا يعنى أكثرهم حفظا ونصيبا من الدين وجاء فى كلام ابن مسعود رضى الله عنه « إنا أصحاب محمد اجتمعنا فأمرنا عثمان ولم نأل عن خيرنا ذا فوق أى ولينا أعلانا سهما أراد خيرنا وأكملنا فى الأسلام والسابقة والفضل ولم نعن بشرح الكنايات بالسهام عن الشرف لعدم استعمالها أو ترادها فى الحديث ، ولأن السهام اندثر العمل بها فى الأمم المتمدينة ، أما الرماح فلا تزال بأيدى الجيوش فى العصر الحاضر ولا سيما الفرسان منها .

٤ — هو نسيج وحده : كناية عن الممدوح لا نظير له فى فضله أو علمه مثلا .

توضيحها : نسيج فعيل بمعنى مفعول، وحده: منفرد به وأصله أن الثوب ينسج على منوال وحده لا يشركه فى سداه ثوب آخر ولا يكون ذلك إلا لرقته ودقته وقد قالوا إن وحده تنصب دائما ولا تكسر إلا فى قولهم هو نسيج وحده فى المدح وعير وحده وجحيش وحده فى الذم ويرى بعض المعاصرين أن لا مانع من نصبه على الأصل وحينئذ تنون كلمة نسيج ويعرب وحده حالا على الأصل من الضمير فى نسيج وعندى أنه مثل والأمثال كما قالوا لا تغير عما وردت .

قال فى المصباح فى مادة نسج . ويقال فى المدح هو نسيج وحده بالاضافة أى منفرد بخصال محمودة لا يشركه فيها غيره كما أن الثوب النفيس لا ينسج على منواله غيره أى لا يشرك بينه وبين غيره فى السدى وإذا لم يكن نفيسا فقد ينسج هو وغيره على ذلك المنوال .

وقال فى اللسان فى مادة نسج : قالوا فى الرجل المحمود وهو نسيج وحده ومعناه أن الثوب إذا كان كريما لم ينسج على منواله غيره لدقته وإذا لم يكن كريما نفيسا دقيقا عمل على منواله عدة أثواب .

وقال أيضا فى مادة وحد : والعرب تنصب وحده فى الكلام كله لا ترفعه ولا تخفضه إلا فى ثلاثة أحرف : نسيج وحده ، وعير وحده ، وجحيش وحده ثم قال معنى قوله نسيج وحده : أنه لا ثانى له وأصله الثوب الذى لا يسدى على سداه لرقته غيره من الثياب [1]

وقال أبو هلال العسكرى فى كتابه جمهرة الأمثال يقال : فلان نسيج وحده أى لا نظير له وأصله الثوب النفيس لا ينسج على منواله غيره معه بل ينسج وحده .

يفهم من نصوص المصباح واللسان فى مادة وحد والجمهرة أن الانفراد بعدم الاشتراك فى السدى ، ومعنى ذلك أنا لو جئنا ببقية الخيوط من الثوب الأول المكنى عنه بالتفوق وأنه لا نظير له ونسجناها على منواله بعينه لا يكون شريكا أو مثيلا له وهذا تحكم لا يرضاه المنطق القاضى بتساوى الشبيهين المتوافقين فى الصفات والأعراض .

ويفهم من نص اللسان فى مادة نسج أن الانفراد فى المنوال نفسه وهذا ما يقتضيه التفسير بلا ثانى له ولا نظير له والاعتراض بأن فى أفراد الثوب بمنول يستوجب تبذيرا ويسم الصانعين بالخرق مردود بما يشاهد من القوالب الخاصة بالقلانس والأحذية لبعض العيون والوجهاء وبأن التغيير فى المنوال لا يستدعى أكثر من تغيير المشط الذى تسلك فيه خيوط السدى وأمره هين يسير أما باقى أدوات المنوال فلا يعتريها التبديل وحينئذ فلا خرق ولا إسراف فيما يختص به المتأنقون .

وقد جاءت هذه الكناية نثراً فى قول السيدة عائشة رضى الله عنها تصف

(١) فى اللسان لرقة غيره من الثياب وهو تحريف صحيح من شارح القاموس وأوحى به عدم استقامة المعنى

سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه « كان أحوذيا نسيج وحده »[1] تعنى أنه ليس له شبيه فى جميع أموره ، وجاءت نثرا فى قول دكين الراجز يمدح عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق زمن يزيد بن عبد الملك وكان الأمير راكبا بغلة فقال على البديهة :

جاءت به معتجرا ببرده سفواء تردى بنسيج وحده الخ[2]

٥ ـ أخذ الشيء برمته : كناية عن أخذ الشيء بجملته فلا يتبقى منه عين ولا أثر .

توضيحها : الرمة بالضم وتكسر الحبل الخلق والرمة بالكسر العظام البالية وجمع رمة رُم ورمم ورمام وأرمام وجمع رمة رمم ورمام ، والرمة الجملة فيقال أعطه الشيء برمته أى جملته كما نقول فى تعبيرنا المعتاد والمكرور أعطه الجمل بما حمل ، وأصل الكناية أن رجلا دفع إلى آخر بعيرا بحبل فى عنقه فقيل أخذ الجمل برمته وصار مثلا لكل من يأخذ الشيء بحذافيره ولا ينقصه شيئا وقد عبر الأعشى عن هذا المعنى فى قوله يراجع الحمار ويصف الخمرة :

فقمنا ولما يصح ديكنا إلى جونة عند حدادها
فقلت له هذه هاتها بأدماء فى حبل مقتادها

الجونة : الخابية للخمر وجعلها جونة لاسوادها بالقار غالبا ، الحداد . الحمار ، الأدمة إذا وصفت بها الأبل فالمراد بها البياض كالهجانة والمقتاد : القائد والمعنى هات هذه الجونة وخذ هذه الناقة البيضاء بحبل قائدها وهو معنى قريب جدا من أخذ الشيء برمته ونستطرد هنا فنذكر ماقيل عن تلقيب الشاعر

(١) الأحوذى بالذال المعجمة الجاد الغالب على أمره وبالزاى الجامع من حاز الشيء يحوزه كأنه جمع الجد والتشمير

(٢) الاعتجار فى الثوب على الرأس من غير ادارة تحت الحنك ، السفواء : الخفيفة الناعمة وذلك محبوب فى البغال مكروه فى الخيل « الردى أو الرديان : سير بين العدو والمشى الشديد

الرجاز غيلان بن عقبة العدوى بذى الرمة : قيل لحبل كان فى عنقه يحمل به تميمة أو تعويذة فلما مر بخباء محبوبته مية وبهره جمالها خرق دلوه عمدا وطلب أن تخرزه له فأبت وقالت إنى خرقاء أى لا أحسن عملا فاستحيا وحمل دلوه وانصرف ثم أشفقت عليه وناديته ياذا الرمة إن كنت أنا خرقاء فان أمى صناع أى تحسن العمل وتتقنه فجلس وخرزت له دلوه وقيل - ويرجحه مؤرخو الأدب - إنه وصف منزل مية بالوحيد فى شعره والرواية هنا من ديوانه الذى صححه كارليل هنرى هيس لا كما روى البغدادى فى خزانته ولا كما روى اللسان وشارح القاموس فى مادة (رم)

هل تعرف المنزل بالوحيد ... قفرا محاه أبد الأبيد
والدهر يبلى جدة الجديد ... لم يبق غير مثل ركود
على ثلاث باقيات سود ... وغير باق ملعب الوليد
وغير مرضوخ القفا موتود ... أشعث باقى رمة التقليد(١)

فكما لقب عائذ بن محصن بالمثقب العبدى لقوله :

ظهرن بكلة وسدلن أخرى ... وثقبن الوصاوص للعيون(٢)

ولقب شأس بن نهار وهو ابن أخت المثقب بالممزق العبدى لقوله :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل ... وإلا فأدركنى ولما أمزق

ولقب مسلم بن الوليد بصريع الغوانى لقوله :

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... صريع محيا الكأس والأعين النجل

لقب غيلان بذى الرمة لقوله أشعث باقى رمة التقليد والله أعلم بالصواب من الرأيين ؟

على الساعى

(١) الوحيد : نقا بالدهناء كما قال السكرى ، مثل جمع مائل بمعنى منتصب وركود : مقيمات ، يعنى الاثافى ، موضوخ القفا : يعنى الوتد الملشجوج وموتود مدقوق ، باقى رمة التقليد : بقى فى الوتد حبل تقلد فيه الدواب

(٢) الكلة : الحجلة (القاموسية) الوصاوص مفرده وصوص أو وصواص : خرق فى الستر بمقدار العين تنظر منه الجارية .